اعتقال الوزراء يعني بدء عملية تفكيكها.. والحل موجود تحديدا في ايدي عناصر الذراع العسكرية للحركة

خطة تدمير حكومة حماس كانت معدة سلفا وعملية اختطاف الجندي جاءت لتعطي المبرر للبدء بتنفيذها

حين دخل اللواء 13 من جنود جولاني الى قطاع غزة يوم الثلاثاء ليلا، لم يكن لاحد في الحكومة الاسرائيلية، ولا في المجلس الوزاري المصغر، او في الجيش الاسرائيلي اية فكرة عن السؤال «الى اين ستتدحرج هذه الكرة من الثلج؟».. فقط كان هناك سيناريو واحد لم يكن حوله أي خلاف: اذا لم يعد الجندي شليت المخطوف حيا.. فلا توجد حكومة لحماس بعد الان. وان اسرائيل ستمحو هذا الاسم من الخارطة السياسية في الشرق الاوسط، وان هذا الشطب سيكون شطبا جسديا. لا يوجد قرار رسمي بهذا المعنى. ولكن يوجد تفاهم غير مكتوب بين جميع اللاعبين الاساسيين في الجانب الاسرائيلي، بدءاً من رئيس الحكومة الاسرائيلي، ومرورا بوزير الدفاع، وجميع قادة هيئة الاركان.

ومساء يوم الاربعاء، بدأت عملية تفكيك حكومة حماس، وذلك بعد أن تم اعتقال وزراء ونواب في المجلس التشريعي ومسؤولين من حماس في الضفة الغربية. فهذه لم تكن خطوة عادية او اعتباطية، بل كانت جزءا من خطة كبيرة كانت قد اعدت سلفا، ولكن تم اخراجها قبل الوقت الذي حدد لها سابقا، وعلى خلفية اختطاف الجندي جلعاد شليت. وان اعتقال كبار المسؤولين في حماس كان بمثابة آلة الضغط التي يجب أن تدفع باتجاه اطلاق سراح هذا الجندي. ولكن، اذا لم توصل هذه العملية الى النتيجة الايجابية، فان خطوة الاعتقال هذه ستكون الاولى في مسيرة تفكيك حكومة حماس.

القيادة الجنوبية للجيش قدمت توصيتها حول تفكيك حكومة حماس يوم الاحد الماضي. فور الاعلان عن خطف الجندي شليت وفي القيادة لم يفكروا ابدا باعتقال الوزراء، ولكنهم فكروا بعمليات قصف مكثفة على المؤسسات والمراكز واجهزة نظام حكومة حماس في قطاع غزة. وبذلك كشف عن جزء آخر جديد من الخطة الشاملة لاسقاط حكومة حماس، والتي سبق وان تم اعدادها في الجيش الاسرائيلي وجهاز الشاباك بعد بضعة اسابيع فقط من وصول حماس الى السلطة الفلسطينية بعد الانتخابات.

الامر بالبدء بعملية القصف المكثف على مؤسسات ومراكز السلطة لم يصدر للجيش الاسرائيلي حسب الطلب، لان المجلس الوزاري المصغر قرر اعطاء الفرصة للاتصالات السياسية التي كانت تجري لاطلاق سراح الجندي المخطوف. وكانت هذه هي المرة الثانية التي يتم فيها تأجيل عملية قصف مؤسسات ومراكز حماس في القطاع. فقد سبق وان تمت الموافقة على قرار القصف للمراكز والمؤسسات في القطاع من قبل وزير الدفاع في أعقاب ازدياد سقوط صواريخ القسام. وعشية الطلعات الجوية لسلاح الجو الاسرائيلي والقصف غير السديد والذي أخطأ الهدف في شارع «صلاح الدين» في غزة والذي نجم عنه مقتل ثمانية من المدنين، حيث وافق وزير الدفاع بشكل مبدئي على عملية القصف صباح يوم الاثنين التالي. وغداة اليوم التالي، قتل المدنيون وتأجل تنفيذ العملية. ولكي تكون لهذه العملية شرعية واضحة، فقد شرح الوزير بيرتس آنذاك، انه لا بد من اعطاء فرصة للهدوء في المنطقة، ويجب ان لا يعطي الانطباع بان دولة اسرائيل تحارب السكان المدنيين.

وبعد ايام معدودة اصاب الجيش الاسرائيلي مرة ثانية اشخاصا مدنيين، ومرة ثانية تم تأجيل هذه العملية، الى أن جرت عملية الاختطاف اخيرا فطرح القرار مرة ثالثة. فهذه الخطة التي تقرر أخيرا ان تخرج الى حيز التنفيذ، وحاليا يقوم الجيش الاسرائيلي بالتدمير، وعلى نحو تدريجي ومخطط لاجزاء من البنية التحتية المدنية «جسور، محولات كهرباء» وما الى ذلك، وذلك لوضع حكومة حماس في حالة من الضعف واظهارها بعدم القدرة على فعل أي شيء لمصلحة الجمهور الفلسطيني.

والنتيجة: فلحوالي 30 في المئة من الفلسطينيين لا توجد كهرباء، والناس لا يشتغلون، ولا يدرسون، وسلاح الجو يزرع الخوف ويذهب النوم من عيون المواطنين بطلعاته التي تخترق فيها الطائرات حاجز الصوت، وعادت المدفعية الى العمل من الباب الخلفي وتقصف بمئات القذائف يوميا مناطق مفتوحة و (خالية) حتى الان، وان المواطن الفلسطيني في قطاع غزة يعيش حالة من الحرب القاسية.

ومن المؤكد بأنه اذا انتهت مسألة الاختطاف بكارثة (موت الجندي) فان جميع هذه الوسائل ستعمل كوحدة واحدة وفي وقت واحد، أي: اعتقالات، تصفية، قصف وغيرها، ولا سيما تصفية قيادات حماس في كل المناطق، وبهذا تكون العملية قد استهدفت وأكملت عملية القضاء على سلطة حماس. والجيش الاسرائيلي بدوره، لا ينوي الدخول الى غزة وادارتها من جديد. ولكن الذي جرى، هو استدعاء العديد من الاشخاص الذين تخصصوا في الادارة المدنية للخدمة في الجيش، قد تم في الايام الاخيرة، بل قبل بضعة اسابيع من اجل اعادة تنشيط ذاكرتهم، لان الجيش الاسرائيلي قد يضطر للبقاء في بعض الاماكن المأهولة بالسكان لفترة معينة (المدن) وبذلك لا بد من الاهتمام في ذلك الوقت باوضاع المواطنين المدنيين.. ليأكلوا، ويشربوا، وللخدمات الانسانية الاخرى.

ساعة واحدة ومتأخرة جدا

لقد تابعوا في اسرائيل يوم الاحد الماضي، وبيقظة تامة الاجراءات التي قام بها رئيس الوزراء الفلسطيني، اسماعيل هنية، من أجل حل مسألة الجندي الاسرائيلي المخطوف. وقد فهم هو ايضا، ان مشكلة خطف الجندي الاسرائيلي قد حطمت «التابو» لدى وزير الدفاع الاسرائيلي بيرتس، وكذلك عند رئيس الوزراء اولمرت بالنسبة لامكانية العودة الى قطاع غزة.

وقد حاول هنية الوصول الى الخاطفين، والتحدث معهم، ولكن هؤلاء لم يستجيبوا له مطلقا. والكل يعرف، وفي اسرائيل كذلك، بأن اشخاصا عديدين من حول هنية «يلعبون معه لعبة مزدوجة».

فقيادة حماس كانت مرتبطة بوضوح بسلسلة عمليات عسكرية، والتي كانت الذراع العسكرية تنوي تنفيذها قريبا، وان عملية اختطاف هذا الجندي كانت واحدة من هذه العمليات. فقبل يوم واحد من مقتل افراد عائلة غالية على شاطىء بحر غزة، تمت تصفية جمال ابو سمهدانة وأربعة آخرين من القيادات في أحد اماكن التدريب التابعة لحماس. وانه كان مع تلك المجموعة يخطط لعملية سوف تنفذ عن طريق اجتياز كل الحواجز الامنية، وذلك على غرار السلالم التي كان حزب الله يستخدم مثلها في جنوب لبنان سابقا. والهدف كان الدخول (اقتحام) الى مستوطنة اسرائيلية قريبة من حدود غزة والقيام بعملية ارهابية فيها. ولكن تصفية هذه المجموعة أدت الى تصفية هذه العملية والخطة، ولكنها مع ذلك أدت الى تقديم (التسريع) في تنفيذ خطة ثانية كانت معدة وبالانتظار.

وعن هذه العملية كان لاسرائيل بعض المعلومات الخاصة. بل انها حظيت عندنا (عند الجيش الاسرائيلي) باسم خاص. وخلال النقاشات وتقييم الاوضاع الامنية جرى الحديث عن امكانية حدوث عملية عسكرية عندنا وعلى نحو غير عادي، وباعداد كبيرة من الاشخاص الذين سوف ينفذونها. وجرى الحديث كذلك عن امكانية استخدام العديد من الوسائل الحربية، ولذلك فانه لدى اوساط معينة في السلطة الفلسطينية شيء ما تريد (حماس) استخدامه للحصول على مكانة أعلى بواسطة استخدام «الانفاق» التي يمكن عن طريقها التسلل الى اسرائيل، وعرفوا في اسرائيل بان مكان العملية سيكون ما بين صوفا وكيرم شالوم. وكانوا يقدرون بان هذه الخلية قد تخرج الى الحدود المصرية ومن هناك تعود الى اسرائيل عن طريق الحدود ما بين مصر واسرائيل لتنفيذها. وعلى ضوء هذه المعلومات، تم اجراء الكثير من اعمال البحث والتفتيش وعلى نحو جذري في المناطق المستهدفة حسب التقديرات، بما في ذلك عمليات تفجير داخلية. ولكن هناك، لم تكن المنطقة المحددة بالضبط هي التي اصيبت، ويدعون بان اجهزة الكشف عن الانفاق لم تصل الى هناك حتى الان بسبب مشاكل في الميزانية، كما يقولون!.

العملية والاجراءات التي كانت تستهدف الكشف او الاحباط للعملية الفلسطينية التي كان الجيش الاسرائيلي يرصدها حتى ذلك الوقت اشتملت على العديد من الخطوات والاجراءات الشجاعة ـ كما يقول قائد الفرقة في القيادة العسكرية الجنوبية ـ المقدم، افيف كوخافي: لا بد من اختطاف شخصين (فلسطينيين) من الذين كانوا ضمن تركيبة المجموعة التي كانت تقديراتنا تقول بانها هي التي ستنفذ العملية القادمة. وفي نفس الاسبوع، اقترح المقدم كوخافي تلك الفكرة، وبعد الموافقة تسللت وحدة خاصة ونفذت المهمة التي اقترحها، وبعد الاستعداد للتنفيذ وافق قائد المنطقة الجنوبية على تنفيذها، وبالتالي حظيت بموافقة الوزير، ويوم الجمعة جرت عملية اشتباك مع وحدة عسكرية تمكنت من التسلل الى المكان الذي تريده (بيت الشقيقان). وكانت عملية نظيفة، حيث تم اعتقال احد الاخوين في البيت، وحين حاول الثاني الفرار تم القاء القبض عليه بواسطة كلب هجومي مدرب، وصباح السبت بدأت التحقيقات المكثفة مع الاخوين حيث اعترفوا بكل المعلومات التي بحوزتهم، وبعد ساعة، وبتأخير كبير فان هذا الجيش نفسه، الذي نفذ تلك العملية اللامعة النظيفة، هو الذي تلقى الضربة في عملية الاختطاف.

اسرائيل ستكون مستعدة ـ كما هو معروف ـ لان تدفع ثمن اعادة هذا الجندي لاسرائيل سليما ومعافى حتى وان كانت لا تعترف بذلك علنا. فنحن لا نتحدث عن اطلاق سراح سجناء، ولكن، ربما التعهد بوقف اطلاق النار ضد حماس او التعهد بوقف عمليات التصفية، وهو انجاز لا يمكن الحديث عنه كـ«خضوع اسرائيلي» او انه ثمن باهظ جدا.

العملية تجري، وبوقائع متكاثفة وبتشريك ثلاثي واضح: رئيس الوزراء.. وزير الدفاع.. ورئيس الاركان. فكل عملية اعتقال، وكل عملية تصفية، وكل رفع لمستوى العمل (القصف) والضرب لدرجة اعلى، فانها تبدأ عند هذا المثلث، والذي يعمل الى جانبه فريق سيكولوجي متخصص واشخاص مهنيون مختصون بالمفاوضات لاطلاق سراح مخطوفين أو اسرى، والفريق يعمل بكل الطرق الممكنة، لجمع كل المعلومات التي يمكن الحصول عليها حول مكان الجندي المخطوف ويحلل الخطوات العسكرية التي تنفذ في المنطقة ويدرس اثارها وامكانية ايجاد طريقة للاتصال مع الخاطفين وما الى ذلك. وحتى الان، فان لهذا الفريق المختص والسيكولوجي وزنا كبيرا وحاسما في تحديد مدى وحجم الضربات التي يقوم الجيش الاسرائيلي بتنفيذها.

بيرتس.. يجتاز مرحلة الانضاج

خلال اليومين، ما بين اختطاف الجندي الاسرائيلي وبين البدء بتنفيذ الخطوات العسكرية الاسرائيلية المخططة سلفا، فان وزير الدفاع عمير بيرتس، قد اجتاز مرحلة جديدة من «الانضاج». وان القرار بالسماح للوحدات العسكرية الاسرائيلية بالدخول الى الاراضي الفلسطينية كانت ترجمة اولى للحالة الانقلابية التي مر بها وزير الدفاع تدريجيا في وزارة الدفاع. والتي بلغت ذروتها، في الخطوات والعمليات الاخيرة في غزة. وان واحدة من حالات الخيبة التي شعر بها بيرتس كانت ما علق به من آمال على ذلك الشخص (ابو مازن) في المراحل القادمة.

ابو مازن يعتبر رئيسا ضعيفا كزعيم، ولا يمكننا التأكد مما اذا كان بقدرته الوفاء بكل الالتزامات التي اعطاها لاسرائيل والتي تعهد بالقيام بها من اجل اطلاق سراح الجندي المختطف منذ اليوم الاول للاختطاف، ولينظم وحدات عسكرية لاجراء عمليات بحث وتمشيط لاجلاء مكان اخفاء ذلك الجندي. وبالوعود التي اعطاها، بأن يقوم شخصيا بخطوات ذات ضغط واضح على حكومة حماس. وبنظر الوزير بيرتس فان اليومين الاخيرين ـ ما قبل بداية العملية العسكرية ـ كانت فرصة لابو مازن لكي يثبت، وايضا للمجتمع الاسرائيلي بأنه شريك جدي ويمتلك القدرة ليقود، وليقوم باجراءات جدية، وليس مجرد الاقوال فقط، بل بالعمل، وانه بحجم التوقعات.. الا انه كان بحجم الخيبة.

وقد تم «حشر» ابو مازن في غزة نتيجة للاغلاق الذي فرضه الجيش الاسرائيلي على القطاع منذ يوم الاحد. وبدلا من الاصرار على رأيه ومواجهة رئيس الوزراء هنية، فانه قرر استغلال تلك الفرصة بعدم السماح لاي احد بالخروج من هناك، لكي ينهي المفاوضات مع الفصائل حول موضوع «وثيقة الاسرى»، والتي لا احد يفكر بأنه سيقوم فعلا بتنفيذها في يوم من الايام.

وهكذا، جلس في مكتب رئيس السلطة أبو مازن، شخصان بعد يومين من الاختطاف، شخصان لا حول لهما ولا قوة، هما: ابو مازن رئيس السلطة وهنية رئيس الوزراء، والى جانبهما شخص اصبح بلا عمل ومضى زمنه، هو محمد دحلان. فهذه صورة حزينة للاشخاص الذين يترأسون هذه الامة (الشعب) الفلسطينية. ولكنهم لا يقودون ولا يسيطرون فعليا على أي شيء. فهم مجرد اشخاص من سلطة لا تقدر على فعل شيء. وخلال الاجتماع المنعقد هناك، تم الطلب من دحلان وذلك من قبل مصدر اسرائيلي كبير، بأن يفحص وضع وحالة التفتيش والبحث الذي تحدث عنها ابو مازن، وخلال حركات من الدخول والخروج المتكرر فان هذا الشخص كان يعطي للمسؤول الاسرائيلي معلومات ضبابية غير مفهومة، فهو نفسه محاط بعشرات، بل بمئات الافراد الذين يحيطون به ويدافعون عنه، والتي تعرف هناك بـ«سرايا الموت»، والتي تعمل فقط من اجل حمايته. الا انه كان يرد علينا باسم الرئيس: «لا توجد لدي قوات تابعة لي، ولم نستعد لهذا بعد».

وفي الجيش الاسرائيلي، والشاباك، لم يتوقعوا شيئا مهما سيأتي من ناحية الرئيس، وان الشخص الذي كان يجب أن يتلقى هذه الردود وهذا الوصف ليعرف حقيقة وضع الرئيس كان فقط وزير الدفاع، بيرتس. فلكي يعود ابو مازن ليكون زعيما قادرا على العمل والتنفيذ وله الصلاحيات، وليعود بنظر وزير الدفاع كما كان، ويقبل بتحمل الاخطار، فان عليه العمل بصعوبة اكثر، والشيء المؤكد حتى الان هو أن ابو مازن لا يرسل أية علامات جيدة، بل علامات اليأس والضعف. وفي المحادثات والاتصالات التي يجريها مع الزعماء والمسؤولين العرب فانه يواصل الترجي: ساعدوني. وفجأة، فان اسرائيل وقفت تواجه الامر: فمع من، في الجانب الفلسطيني سوف تقوم غدا باجراء المفاوضات؟ ومن هو الشريك؟

وليس أقل اهمية من ذلك، فان الشاباك، وخلافا للجيش الاسرائيلي، يعتبر أن قصة التعددية والتيارات داخل حماس هي عملية مصطنعة جدا. فلا توجد فوارق فعلية وجوهرية، ويبدو أن وزير الدفاع قد أيد هذا التحليل الذي توصل اليه جهاز الشاباك بهذا الخصوص. ومن ناحيته، فانه لا يوجد شرطي سيء وآخر جيد بهذا المعنى. وقد بذل اسماعيل هنية كل جهوده وكل ما يستطيعه في اليوم الاول، وذلك لانه فهم تماما بان العملية العسكرية الاسرائيلية القادمة قد تكون نهاية طريقه ونهاية حكومته التي شكلها. فاذن، لا يوجد معتدلون في حماس، واذن لا يوجد ابو مازن الذي يمتلك القدرات التي سيستغلها غدا صباحا وينفذ بها التسويات السياسية، فمن أين سيأتي بها؟

حسب طريقة حزب الله

بدأت يوم الخميس مرحلة جديدة وطريقة جديدة في الحرب. ففي الخطة التدريجية التي اقرها الجيش الاسرائيلي لاحتلال اجزاء من قطاع غزة، يوجد «بند» خاص يتحدث عن ابعاد المنطقة التي تطلق منها صواريخ القسام، والتي يقال عنها باللغة العسكرية «القضاء على قدرة الاطلاق». فالجيش سبق له وان خطط للدخول الى شمالي القطاع وليقوم باجراء عمليات البحث والتفتيش من بيت الى بيت، ولولا حدوث عملية الاختطاف، كما يقولون في الجيش الاسرائيلي ـ من قبل كبار القادة العسكريين ـ فقد كان من المشكوك به ان يسمح المستوى السياسي للجيش الاسرائيلي بدخول قطاع غزة. فمنذ ان غادر هذا الجيش قطاع غزة، فانه يستعد للقيام بعمليات ميدانية داخل مناطق القطاع، بما في ذلك مناطق المدن الفلسطينية، وهذه ستكون المرحلة التي سيقع فيها الاحتكاك الفعلي بين الجيش وبين القوات الفلسطينية المسلحة.

توجد لمثل هذه العمليات البرية الميدانية التي قد يقوم بها الجيش تأثيرات محدودة للغاية. ففي اليوم الذي يخلي فيه الجيش الاسرائيلي مواقعه داخل القطاع ويغادرها فان الوضع سيعود فورا الى سابق عهده، وان الطريقة الوحيدة لاحداث الانطباع في ذهنية وتفكير الطرف الثاني، هو دفع ثمن باهظ لذلك، على غرار سقوط عدد كبير من الضحايا. ومن هنا، كلما كان عدد المسلحين الذين يحملون السلاح، الذين سيدفعون ثمن ذلك بحياتهم في حالة حدوث هذا الصدام المتوقع، أكبر فان انجاز العملية البرية سيكون اكثر نجاحا.

فكم من الوقت سيستمر هذا الضغط العسكري الاسرائيلي؟ فالخطة العسكرية التدريجية (المتدحرجة) ستجد نفسها بعد وقت ليس بطويل، بل قد يكون ذلك في الاسبوع القادم مثلا، واذا لم تكن هناك أية احتمالات جديدة يمكن بواسطتها حل مسألة الجندي المخطوف، فان القيادة السياسية ـ العسكرية ستجد نفسها مضطرة لاجراء تقييم جديد بالنسبة لطريقة وكيفية توقيت استئناف تنفيذ هذه الخطة المتدحرجة.

ومن الجانب الفلسطيني، فان العملية التي نفذت في كرم سالم، قد جرى تخطيطها وتنفيذها حسب الطريقة التي عمل بها حزب الله اللبناني. وبناء عليه، فان المرحلة الثانية ستكون في محاولة «تهريب هذا الجندي المخطوف الى خارج الحدود الفلسطينية» وذلك كاستمرار طبيعي لتنفيذ العملية حسب طريقة حزب الله، وذلك لاجراء المفاوضات مع اسرائيل بشروط وظروف مريحة أكثر. وحيث تكون أدوات الضغط التي تقوم بها (اسرائيل) اقل قوة. والطريقة اللبنانية، هي اجراء مفاوضات حول المفاوضات، وليس بطريقة مباشرة مع اسرائيل، بل بواسطة طرف ثالث (وسيط)، ويمكن ان تكون مصر على سبيل المثال. فالنظرية المعروفة لحزب الله تؤكد جازمة: معلومات مقابل انجازات مادية. أي أن هؤلاء سيقطعون انفاس اسرائيل قبل أن يوافقوا على البدء بالمفاوضات. وفي المرحلة الثانية ستبدأ مرحلة احداث ضغوطات نفسية على اسرائيل وعلى نفس تلك الجهات التي ستتفاوض من اجل نقل هذه الضغوطات الى داخل اسرائيل لكي تبدأ هي بالضغط على الحكومة لتوافق على بعض التنازلات التي سبق وان رفضتها الحكومة من قبل، أي بواسطة الضغط على عائلة الجندي باشكال متعددة مثلا.

ووفقا لنفس هذه الطريقة، فانهم سيبدأون باعطاء معلومات حول تردي حالته الصحية، وفي اسرائيل، فانهم مقتنعون بأن حالة الجندي المخطوف جيدة، وانها في اسوأ الحالات تكون قد اصيبت بشيء بسيط (شظايا صغيرة، اصابات طفيفة، وربما اصابة بكسر بسيط). ولكن الطرف الاخر سيبدأ بنشر معلومات عن «تدهور حالته الصحية» وذلك بهدف ممارسة ضغط مباشر على عائلته، واذا لم تكن هناك بادرة جديدة وضغوط جديدة للحل فمن الممكن أن تبدأ هنا عملية تعذيب واساءة واضحة ومستهدفة للعائلة من جهة وللجمهور الاسرائيلي بكامله من جهة ثانية. وفي نفس الوقت فان الطرف الثالث، أي الوسيط، الذي سيبدأ باظهار أسفه وتضامنه مع شعور العائلة في الوقت الذي تجري فيه محاولات حثيثة لتهريب الجندي الى خارج المنطقة.

توجد ما تشبه قاطرتين تسيران بخطوط متوازية: الاولى تتمثل بالخيار الاول وهو خيار المفاوضات مع الخاطفين، في الوقت الذي تستمر فيه عمليات تقويض حكومة وسلطة حماس في القطاع. فالقاطرة المدمرة تسير بسرعة وقوة بالغة، ويمكن لها أن تصل الى هدفها النهائي قبل أن تبدأ المفاوضات عبر الوسطاء، وقبل أن تخرج هذه المحاولة الى حيز النور. فالاسبوع القادم سيكون هو الاسبوع المصيري، وفيه سيتقرر ما اذا كانت حكومة حماس ستستمر وتكتب لها الحياة أم لا. فالمفتاح والحل موجود تحديدا في ايدي عناصر الذراع العسكرية لحركة حماس.

اليكس فيشمان
كاتب رئيسي في الصحيفة
(يديعوت احرونوت) 2006/6/30

دون أن تكون هناك اي فكرة عمن سيحل محله في هذه الحالة

الهدف من العملية في غزة لم يعد واضحا .. وتسلسل الاحداث تجاوز الهدف الاساسي ليصل الى ازالة حكم حماس

مستوى الانصات والتركيز لدى وسائل الاعلام الاسرائيلية هذه الايام، المصابة بالمونديال، يشبه مستوى الانصات والتركيز لدى طفل ابن 4 سنوات يشاهد الفيلم السينمائي الاول له: الكثير من الاثارة، الكثير من المعلومات. الاعمال الدرامية في المناطق تجري الواحدة تلو الاخرى وتجرف قنوات التلفزيون نحو موجات مفتوحة من البث المباشر. من الصعب جدا متابعة الحركة المجنونة للبندول في المناطق. ففقط قبل ثلاثة اسابيع كنا ننشغل بنشاط بصواريخ القسام التي كادت تغلق منزل عائلة بيرتس في سديروت.

وردت اسرائيل بقصف قتل جمال ابو سمهدانة من لجان المقاومة الشعبية وفي الغداة اندلع الخلاف حول «قذيفة ام عبوة» في شاطىء بيت لاهيا. وبينما يلوح اللواء مئير كليفي بشظايا غير القذيفة، قتل سلاح الجو على سبيل الخطأ 12 مدنيا فلسطينيا في القطاع.

وما أن كاد يبدأ الجدال حول استخدام «الاحباطات المركزة» في قلب سكان مدنيين حتى أتى الهجوم في كرم سالم. وصورة الجندي الأول المخطوف جلعاد شليت، برزت على كل الصفحات الاولى. وهكذا فجأة وجدنا أنفسنا مرة اخرى داخل القطاع، الذي اقسمنا ألا نعود اليه قبل تسعة اشهر ونصف الشهر. وكانت وتيرة الاحداث سريعة لدرجة أنه لم يتبق أمامنا الوقت لفحص التواصل واستيضاح كيف وصلنا من جهد موضعي لتحرير المخطوف، بالوساطة أو بالقوة، الى عملية واسعة، كبيرة، تهدد بانهيار حكم حماس في السلطة.

العملية

الصحافة في اسرائيل تباهت، بشكل مغاير، في أن الاحداث في غزة دحرت انباء المونديال عن العناوين الرئيسة في العالم. عشرات الفرق الصحافية الاجنبية تجمعت على التلال غربي سديروت، تركز في زاوية تصوير مثالية لتوثيق مجنزرات جفعاتي المستعدة لاقتحام المنطقة في محيط بيت حانون.

وخلف الصور يقف النصب التذكاري «سهم أسود» لضحايا عمليات الرد الاسرائيلية القديمة في القطاع في عامي 1955 ـ 1956، ما سيحصل في القطاع في الاسابيع القادمة، حسب الخطة العسكرية، سيذكر بصيغة تكنولوجية، اكثر تطورا لتلك العمليات. فالتواجد البري الدائم في القطاع (حاليا في الدهنية وفي السياق في بيت حانون) سيكون قصيرا، عقب الخطر على القوات. وستحل محله عمليات دخول وخروج: اجتياحات مجنزرة، حملات اعتقال وضرب لاهداف بنى تحتية متماثلة مع حكومة حماس. والجيش الاسرائيلي، الذي لا يعترف بذلك، قد اهين هذا الاسبوع في كرم سالم. وهو سيجبي الثمن ثأرا، بمصادقة السياسيين.

وقبل نهاية الاسبوع، انتقل التركيز من مصير الجندي أول شليت الى المعركة الشاملة. من المشكوك فيه أن تكون الاهداف تتداخل حقا الواحد بالاخر. سلسلة العمليات العسكرية ـ اجتياحات، قصف بري، قصف جوي للجسور، وقف الكهرباء واخافة السكان في الاحياء قبالة سديروت ـ تهز القطاع بالفعل، ولكن ليس واضحا ما هو تأثيرها على الخاطفين وعلى من ينقلون اليهم التعليمات. المعلومات عن الجندي جزئية. والخاطفون يبدو أنهم قاموا بعمل تحضيري جذري وهم يحافظون على سرية نسبية، تجعل من الصعب توثيق الخناق الاستخباري حولهم. ولكن حتى لو جمعت معلومات استخبارية، فقد اعترف ضباط ذوو أقدمية في مثل هذه العمليات بأن عملية انقاذ كهذه تقترب بشكل خطير من حدود المستحيل. فقوة الانقاذ كفيلة بأن تفاجىء وتقترب بشكل سري حتى جوار مكان الاختباء، ولكن يحتاج الخاطفون فقط الى ثوان معدودة كي يقتلوا الجندي (هكذا حصل في قضية فاكسمان، في شروط بداية اكثر راحة للجيش). كما أن الخروج، من قلب المنطقة المكتظة، سيكون صعبا للغاية. فهل هذه أصعب من تصفية ابو جهاد في تونس؟ اصعب بكثير، اجاب الضابط الذي يفترض أنه يعرف.

في الجيش، كالمعتاد في الاسابيع الاخيرة، من الصعب العثور على تأثر كبير باداء القيادة السياسية. رئيس الوزراء ووزير الدفاع اظهرا حضورا زائدا هذا الاسبوع (احيانا خطابان او ثلاثة في اليوم بما فيها الوعود لانقاذ الجندي ومعاقبة الارهابيين) ولكن مع نقص في المساهمة العملية. فلا ينقص هنا فقط صلاحية أمنية، بل وخط سياسي واضح. في غرفة عمليات الوحدات الميدانية، جولاني وجفعاتي، وجدوا صعوبة في شرح أهداف حملة «امطار صيف». فعندما تنجر الخطوات، بشكل واضح، باتجاه الصدام المباشر مع حكومة حماس، لم يتم ايضاح هدف المعركة بعد: هل اسرائيل مستعدة للمخاطرة باسقاط حكم حماس ومن تفكر هي في أن يأتي محله؟

الاجواء العامة لم تساهم في تهدئة الخواطر. ووسائل الاعلام ادارت بثا لا نهاية له من منزل عائلة شليت في متسبيه هيلا وطاردت التقارير عن اختطافات اخرى، بعضها كان نتاجا لحرب نفسية من جانب منظمات المخربين. وتحدثوا في الجيش بتقدير عن العراق. فقبل ثلاثة أسابيع فقط اختطف ثلاثة بحارين امريكيين، «اثنان عادا مقطعين ـ والامريكيون لم يحركوا ساكنا». وهذا لا يعني ان احدا يستخف بالازمة الرهيبة لعائلة شليت ومن واجب الدولة انقاذ جلعاد، ولكن ربما من الافضل كبح جماح الفزع بعض الشيء. حاليا، ظهرت قضية اختطاف اخرى، للشاب الياهو اشيري من ايتمار. ويوم الخميس فجرا عثر على جثته في حقل غربي رام الله. ويبدو ان الخاطفين، نشطاء فتح ممن عملوا بالهام من لجان المقاومة في غزة، قد اطلقوا النار عليه فقتلوه فورا تقريبا.

وفي القطاع يتواصل الجمود في قضية الجندي. يبدو أن رئيس المكتب السياسي لحماس في دمشق، خالد مشعل، يملي على الخاطفين خطا متصلبا، يسكره نجاح الاختطاف الذي يوفر له فرصة لان يشبه حسن نصرالله من حزب الله الذي نجح في الافراج عن مئات المعتقلين الفلسطينيين في صفقة تننباوم. وعملية الجيش الاسرائيلي في الضفة يوم الخميس بالذات، حيث اعتقل خمسة وزراء من حماس وعشرون نائبا، طرحت لاول مرة تهديدا حقيقيا على مشعل. فالقرار بضرب الذراع السياسية في الضفة كان تحطيما للقواعد التي اخذتها على نفسها اسرائيل منذ انتصار حماس في كانون الثاني (يناير). والاتجاه في السياق واضح: تحتمل ايضا اغتيالات، لوزراء حماس في القطاع وربما (وهذه على اي حال امكانية اكثر اقلاقا من ناحية المكتب السياسي في دمشق) مشعل نفسه. الانجاز السياسي الهائل لحماس في حالة خطر. رجال حماس في القطاع بدوا امس لاول مرة هذا الاسبوع في حالة ضغط شديد. مشير المصري، من الناطقين بلسان الحركة، توجه الى الدول العربية بطلب للعمل على وقف الهجوم الاسرائيلي المقترب.

المقاطعة في رام الله تبدو منقطعة عن عاصفة «امطار صيف» في غزة. مكتب الرئيس لامع، مرتب مثلما لم يكن في أي وقت مضى. الحرس الرئاسي في مدخل النطاق يترك انطباعا وكأنه جيش: طوابير، جنود حالقون، مساكن نظيفة ـ بعيد جدا عما ميز ما اعتبر وحدة عليا فلسطينية في عهد الساكن الاصلي للمبنى، ياسر عرفات. مناقيش هواء تحفر الحيطان والعمال يستغلون غياب رئيس السلطة محمود عباس، المتواجد في غزة، باجراء ترميمات اخرى. ومثلما في عهد عرفات، الفوضى مستمرة في العربدة في مناطق السلطة، ولكن عند ابو مازن الجلبة لا تنجح في التسلل الى نطاق الساحة المنزلية.

فريق مكتب الرئيس مطلع على كل التفاصيل التي تنشر عن تطور الدراما في غزة. ويقول احد رجال الرئيس: «ليس جلعاد شليت وحده اختطف، كل القطاع والضفة اختطفوا معه». واشتكى يقول: «الجميع انتقل للاهتمام بالاتصالات لتحرير الجندي والتخوف من هجوم اسرائيلي. ونسي العالم الازمة في غزة والحصار الاقتصادي. خاطفو الجنود يخدمون مصلحة مشعل في دمشق وليس مصلحة الشعب الفلسطيني». غضب ابو مازن على حماس ولا سيما على مشعل لم يعد خافيا. وعن رئيس الوزراء اسماعيل هنية يتحدثون في مكتب الرئيس بتعابير يوصف بها ابو مازن نفسه في اسرائيل («هو رجل لطيف، ولكن عديم القدرة على التأثير. آخرون يقررون عنه»). ومشعل يعتبر الشيطان الاكبر.

الرئيس نفسه أقل تسامحا تجاه هنية. ابو مازن اهين من سلسلة المناورات التي تلقاها من الاذرع المختلفة لحماس في الاسابيع الاخيرة. فالهجوم في كرم سالم يراه كحدث مضاد له شخصيا ويرمي الى التشويش في اللحظة الاخيرة على الاتفاق بين فتح وحماس على وثيقة الاسرى. وهذا الاسبوع وجد الرئيس صعوبة في كبح جماحه وفي حديث مغلق صب الشتائم الحادة على خصومه.

وفرضت الاحداث على ابو مازن وهنية حاليا حلفا مؤقتا. كلاهما يريدان التقدم في وثيقة الاسرى وكلاهما معنيان باستقرار الوضع الامني في القطاع. وفي احد اللقاءات التي اجراها في بداية الاسبوع في غزة، في ظل كتمان نسبي، تحقق اتفاق حتى على هوية الوزراء من حماس ممن سيقالون لاخلاء المكان امام ممثلي فتح في حكومة الوحدة المطروحة. الاسم الاول في قائمة المبعدين هو وزير الخارجية في حكومة حماس محمود الزهار. «هنية مستعد اليوم للنزول عن الشجرة ويوافق على قبول حل الدولتين للشعبين كاتفاق دائم»، يدعي احد رجال ابو مازن. «ولكن مشعل وعصبته ببساطة لن يسمحوا له بعمل ذلك. فاذا ما وافقوا اليوم على حل تاريخي مع اسرائيل وحتى على حكومة وحدة فلسطينية، فان الامر سيعتبر فشلا ليس فقط لحماس، بل ولحركة الاخوان المسلمين برمتها، والتي نجح جناح منها في ان ينتخب للحكم في السلطة. مشعل، الذي يرى نفسه الزعيم الحقيقي لحماس غير معني بان يذكر كمن اعترف بدولة اسرائيل وتنازل عن اجزاء من الارض المقدسة».

حماس

الجدال بين مشعل وهنية لم يبدأ في الاشهر الاخيرة. فالمواجهة بدأت منذ نهاية 1995، عشية الانتخابات الاولى للبرلمان الفلسطيني. وفي حماس جرى في حينه جدال في مسألة المشاركة في الانتخابات. مشعل قال لمبعوثي عرفات انه لن يعارض مشاركة حماس في

اسماعيل هنية

خالد مشعل

الانتخابات، ولكن بعد بضعة ايام غير رأيه. اما هنية، مع ثمانية من كبار المسؤولين في حماس ممن تمكنوا من عرض ترشيحهم للبرلمان في حينه، فقد اختاروا مواصلة المنافسة. ونشر مشعل ردا على ذلك منشورا اعلن فيه بأن ليس هناك صلة بالمسؤولين التسعة بحماس. وتراجع التسعة اخيرا عن قرارهم ولكن هنية الذي شعر بالاهانة أعلن بأنه لن يواصل في المنظمة واخذ على نفسه دور الوسيط بين السلطة وحماس. وفقط بعد الافراج عن الشيخ أحمد ياسين من السجن، في ايلول (سبتمبر) 1997 في أعقاب فشل اغتيال الموساد لمشعل، عين هنية مدير مكتب ياسين وعاد الى النشاط الكامل في الحركة.

وبقيت الرواسب بين الرجلين على حالها. هنية لن يتحدى علنا قرارات مشعل ولكن لم يعد سرا انه لا يسود بينهما الحب. مسؤولون كبار في حماس، ولا سيما في الضفة، يدعون بأن مشعل مستعد لان يضحي بحكومة هنية وبحياة وزرائها كي يبني مكانته كزعيم اسلامي لا يساوم. وربما لانه بدأت قطيعة بين رئيس السلطة ومشعل قبل قرابة ثلاثة اشهر يبدو موظفو مكتب ابو مازن اكثر فظاظة: «مشعل هو خادم سيدين: بشار الاسد في دمشق وقيادة النظام الايراني في طهران».

في اسرائيل، في فتح وكذا بين اوساط رجال الذراع السياسة لحماس في القطاع انطلقت تقديرات بأن مشعل كان له دور شخصي في قرارات الهجوم في كرم سالم. نائب مشعل، موسى ابو مرزوق، نفى اول هذه الاتهامات. والواضح هو أن مشعل لا يرى بارتياح صعود هنية نحو العظمة والعطف الشديد الذي يتمتع به لدى الجمهور حتى الازمة الحالية. كبار مسؤولي فتح يقدرون بأن موقفيه في الخلافين الاخيرين، حول وثيقة الاسرى وكرم سالم، توجههما الرغبة في اجبار هنية على الاعتراف بالهرمية الحركية: حماس الخارج فوق حماس الداخل. في الساحة العربية الكبرى، مشعل يبني مكانته بالاساس من خلال المال الايراني. وقد تلقى من طهران عشرات ملايين الدولارات، جزء كبير منها ينقل في حقائب نقدا الى الموالين له في القطاع.

كما أن مشعل يوجه نشاط خلايا الارهاب النائمة في الاردن، بتكليف من سورية. وحسب مصادر في فتح، فان المخابرات الاردنية ذهلت من حجم دوره في تفعيل الخلايا الارهابية لحماس التي اكتشفت في الاردن. «الاردنيون اكتشفوا نحو عشرين مخزنا للسلاح كانت تعود لنشطاء حماس وهي تضم صواريخ كاتيوشا، آر.بي.جي ولاو. وجزء من السلاح جرى تهريبه الى أماكن خفية اخرى». وما اثار حفيظة الاردنيين كان المحاولة الجسورة من حماس لتجنيد عملاء من رجال الامن في المملكة الى الحركة، ولا سيما من أبناء القبائل البدوية، التي تعتبر موالية بشكل خاص للملك عبدالله. هدف الخلية، حسب تلك المصادر كان مهاجمة اهداف اردنية بناء على امر من ايران او سورية: منشآت بنية تحتية، المطار ومؤسسات المملكة. ويدعون لدى ابو مازن بأن «مشعل يعمل بتكليف من محور الشر. وامواله تعزز مكانته في حماس». واستمرار سياسته الحالية تورطه ليس فقط مع اسرائيل. فالاردنيون بالذات الذين انقذوه من الموت المحقق إذ طالبوا اسرائيل بنقل الترياق اليهم بعد أن سمم في عام 1997، كفيلون بأن يكونوا هم من يطالب برأسه.

عاموس هرئيل وآفي يسسخروف
كاتبان في الصحيفة
(هآرتس) 2006/6/30

الدولة تفقد صوابها امام اختطاف جنود او مدنيين.. وقلقها من ترك جريح في الميدان يدخلها في الجنون

■ هذه الدولة التي فقدت في سنوات وجودها الاف الجنود في الحروب والعمليات التي استهدفت الجماهير، تفقد صوابها امام اختطاف جنود او مدنيين افراد. والتراث الفائق في عدم ترك جريح في الميدان، يدخل الدولة في حالة من الجنون. قتيلان في اخفاق للجيش الاسرائيلي في منطقة كرم سالم نسيا تقريبا من الوعي الجماهيري في ضوء اختطاف جلعاد شليت والعثور على جثة الياهو اشيري. فمن أمر باختطاف الجندي والمدني كان يعرف جيدا أنه امسك بنا من عقب أخيلنا.

الدولة أفرجت عن مئات السجناء مقابل الحنان تننباوم وافرجت عن سجناء أمنيين حتى مقابل جثث ضحايا الجيش الاسرائيلي. واسحق رابين قال ذات مرة ان كل الجيوش العربية لم تنجح في اخضاعنا مثلما فعلت أم واحدة اسمها مريم غروب. هذا الضغط، الذي أدى الى صفقة جبريل سيئة الصيت والسمعة ـ الافراج عن 4 الاف سجين (العدد مغلوط والصحيح هو 1,150 ـ الترجمة) بينهم كبار القتلة، مقابل اعادة ثمانية جنود من كتيبة الشبيبة المقاتلة الناحل (العدد الدقيق هو 3 جنود 2 من ضمن الـ 8 المختطفين اياهم اضافة الى 1 سابق كان لدى جبريل، 6 منهم أُفرج عنهم في طرابلس مقابل 100 معتقل ـ الترجمة)، اختطفوا في لبنان.

قدرة الصمود لدى الجمهور الاسرائيلي هي بالاجمال عالية بما فيه الكفاية. فقد صمد لسنوات في الحروب، في العمليات التي استهدفت الجماهير، ولكن دوما بعد الصدمة الاولى تتواصل الحياة الى الامام. كانت لدينا طائرات مخطوفة ـ «اير فرانس» في عنتيبة، و«سبينا» التي هبطت في اللد ـ وفي كلتيهما أمسكت دورية الاركان وصفت الخاطفين وحررت المسافرين. موشيه ديان كرئيس للاركان وكوزير للدفاع اعتقد بان اسرائيل، على نحو يشبه الولايات المتحدة الان، لا تتفاوض مع خاطفين. هذا المبدأ أدى في حينه الى المذبحة في مدرسة معلوت. الدولة برمتها بكت، ولكن مع الزمن ندمت على اصرارها على هذا المبدأ.

الدولة التي تحمي مواطنيها وجنودها المخطوفين ومستعدة لان تدفع الكثير كي تعرف ما حصل لمصيرهم، مثل رون اراد، تبدي نبلا روحيا، ولكن ليس ضعفا. ما حصل بعد اختطاف شليت يقترب من الجنون الهستيري. كل البلاد مليئة بحكماء في الليل ـ من ضباط احتياط، محللين عسكريين ومثقفين، وحتى وزراء حامي الرؤوس ـ كانوا يطرحون جميعا بتحفز اسئلة من نوع: كيف حصل هذا مع انه كانت انذارات مسبقة باعمال الاختطاف؟ هل حقا كانت انذارات كهذه؟ وكيف لم يعرفوا بالنفق؟ وما شابه. السؤال هو، اين كان كل هؤلاء الخبراء قبل أن يحصل هذا؟ لماذا لم يحذروا؟

والى جانب كل هذه مشورات وتهديدات هستيرية: تنفيذ اعمال اختطاف مقابل الاختطاف، تصفية خالد مشعل، طرح انذار لدمشق التي ترعى مشعل، اختطاف رئيس وزراء حماس وما شابه. وفي فجر يوم الخميس اعتقل في الضفة عشرات من رجال حماس، وزراء ونواب. «يريدون تحرير سجناء؟ سنحرر هؤلاء المعتقلين مقابل شليت»، قال ايهود اولمرت في مداولات داخلية.

كاتب رأي معروف وصف اسرائيل كدولة مشوشة وعديمة الخطة والقيادة. بنيامين نتنياهو طلب ازالة القيود التي فرضت على الجيش الاسرائيلي كي يعيد قوة الردع. آفي ديختر اقتبس كمن قال في الحكومة: وضع موعد نهائي للخاطفين، بعدها يصبح قطاع غزة جهنم. الكثير من التهديدات تطايرت في الفضاء: من التصفية الجسدية لحكومة حماس وحتى تقطيع اوصال القطاع، قطع الماء والكهرباء. الامر الذي لم نرغب ابدا في أن يحصل: ضجيج الدبابات مرة اخرى انطلق في قطاع غزة. الحملة المتدرجة ترمي الى منع تهريب الجندي أول شليت الى خارج القطاع، وكذلك محاسبة مبادري اطلاق القسام غير المنقطع. برأي الجيش، قادة حماس يعرفون عن مكان وجود شليت. وبالمقابل للنشاط العسكري يجري نشاط دبلوماسي واستخباري. واذا كان المخطوف لا يزال في غزة فعلا، فان هدف الحملات هو استرداده حيا دون دفع كفارة. فالدولة لا يمكنها أن تكون أسيرة خاطفين، خشية أن تجعل الاختطاف السلاح التالي لمنظمات الارهاب.

المتفائل في هذا الوقت من حقه أن يؤمن بان المخطوف سيكون في ايدينا سليما معافى. علينا أن نحذر من أن الهستيريا لن تبعد الحملة المتدرجة نحو مشاهد جديدة من الدم والنار. وفي صياغة اخرى للقول المعروف عن اريل شارون، فان هذا هو المكان للقول: رباطة الجأش هي قوة أيضا.

يوئيل ماركوس
كاتب دائم في الصحيفة
(هآرتس) 2006/6/30